النارجيل او جوز الهند

نقل ابن البيطار عن ابي حنيفة ان النارجيل "نخلة طويلة تميل ثمرتها حتّى تدنيها من الارض ليناً ولها اقناء يكون في القنو الكريم منها ثلاثون نارجيلة ولها لبن يسمى الاطواق واذا اراد احد اخذ لبنها ارتقى الى ذروتها ومعهُ كبزان فينظر الى الطلعة من طلعها قبل ان تنشق فيضع طرفها مع قبض الوليع ثم يلقمها كوزاً من الكبزان ويعلق الكوز بالعرجون وينعل كذلك بالطلعة الاخرى ثم ينزل فلا يزال لبنها يقطر في الكبزان قطر الشمعة حتّى اذا كان بالعشي صعد الى الكبزان فانزلها وقد تحصل منهُ ارطال ثم يشرب ذلك اللبن من ساعتهِ وهو حلو طيب غليظ القوام كلبن الضان وان شرب بالشراب اسكر معتدلاً"

وقال ابن بطوطة "النارجيل من اغرب الاشجار شأناً واعجبها امراً وشجرتهُ شبه شجر النخل لا فرق بينهما الّا ان هذه تثمر جوزاً وتلك تثمر تمراً. وجوزها يشبه رأس ابن آدم لان فيها شبه العينين والفم وداخلها شبه الدماغ اذا كانت خضراء وعليها ليف شبه الشعر وهم يصنعون منهُ حبالاً يخيطون بها المراكب عوضاً من مسامير الحديد ويصنعون منهُ الحبال للمراكب. والجوزة منها وخصوصاً التي بجزائر ديبة ابهل تكون بمقدار رأس الآدمي ومن خواص هذا الجوز تقوية البدن واسراع السمن والزيادة في حمرة الوجه ففعلهُ فيها عجيب. ومن عجائبهِ انهُ يكون في ابتداء امرهِ اخضر فمن قطع بالسكين قطعة من قشرهِ وفتح رأس الجوزة شرب منها ماء في النهاية من الحلاوة والبرودة"

ولم نرَ لغيرها من كتّاب العرب كلاماً في هذا الموضوع اوفى من هذا. اما كتّاب الافرنج فافردوا للنارجيل فصولاً طويلة وبحثوا فيهِ من وجوه شتى علميّة وصناعيّة وتجاريّة. وهاك خلاصة ما كتبوهُ في هذا الشأن

النارجيل من اكثر الاشجار نفعاً للانسان ان لم يكن انفعها كلها حتّى قال المثل الصيني ان منافعهُ بقدر ايام السنة عدًّا. وقال سكان جزائر البحر ان الذي يزرع نارجيلة يستغلُّ منها لحماً ولبناً وبيتاً وثوباً واناء وخيراً دائماً لهُ ولاولادهِ من بعدهِ. فان الجوز نفسهُ طعام كافٍ للالوف والوف الوف من البشر لا يقتاتون بغيرهِ ولبنهُ شراب لهم والشجرة نفسها تمتص المياه من ارضهم ولولاها لصارت سباخاً وبطائح كثيرة الحميّات والامراض الاجميّة واذا بضعت الطلعة من طلعها اي الغصن الذي تظهر عليهِ الازهار قطر منها عصارٌ حلو يُغلى فيكون منهُ سكّر او يختمّر فيكون منهُ شراب مسكر وهو الدرق الاصلي وقد يرج

بالحشائش المرة فتكون منهُ جمة كاليرا الاوريَّة . ويعصر من الجوز نفسهِ دهن يؤكل كالزبدة ويطبخ بهِ كالزيت . ويجلبهُ الاوربيون الى بلادهم ويصنعون منهُ شمعًا وصابونًا وغليسرينًا . ولبنها تصنع منهُ الحبال والمكانس ومسح الرجلين التي توضع امام الابواب وتحشى بهِ الوسائد بدل شعر الخيل . وقشر الجوز تصنع منهُ الآنية المختلفة . وسعفهُ تسقف بهِ البيوت ويصنع منهُ نوع من الورق كما يصنع من البردي وقد كتب عليهِ اشهر كتب البوذيين . ويصنع من جريدهِ روافد ومصاميك ومن الليف المحبط باصل السعف مصافي وقلانس وفي الجذع خشب جيد يصنع منهُ النجارون كثيرًا من الامتعة . هذا قليل من كثير من فوائد هذهِ الشجرة . ومنظرها بهيج كما ترى في هذا الشكل

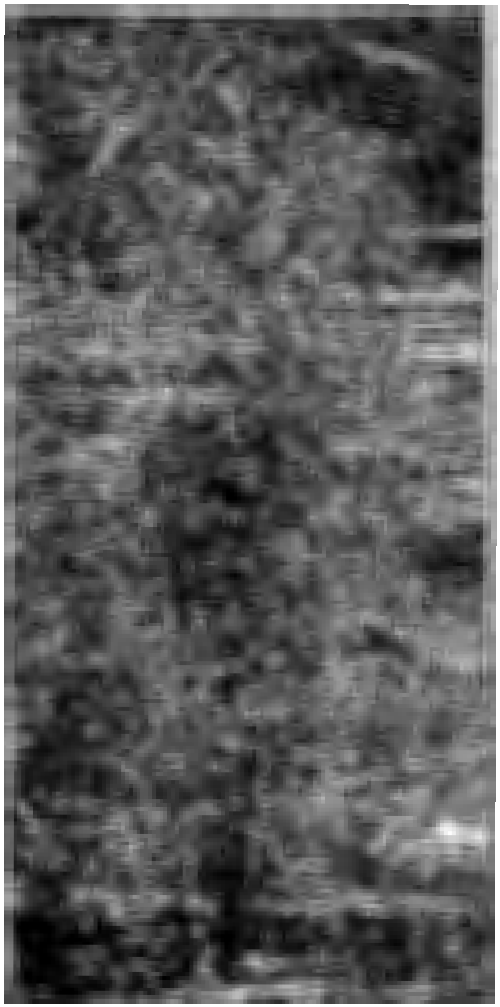

اما لبن الجوز الذي يرد البنا فلا نستطيبهُ كما لو شربناهُ في وطنهِ قبل ان تمضي عليهِ الايام الطوال وتفسد طعمهُ فاذا أردت ان تشرب هذا اللبن وتستطيبهُ فأتِ في بلد بقرب خط الاستواء وادعُ السقاء في الظهيرة عند اشتداد الهجير فيأتيك بكأس من البلور مملوءة بشراب صافٍ كالزلال وفيها قطعة ثلج ترفع رأسها تارةً وتخفضهُ اخرى او تقرع جوانب الكأس فترن بصوتها الشجي فخذ الكأس من يدهِ واشرب ماءه زلالاً وسحرًا حلالاً لا يشبههُ سواهُ ولا يعدلهُ الاَّهُ

ابن الحميَّا وابن السلسبيل فذا من صنعة الله لا من صنعةِ البشرِ

واذا اراد القارئ ان يعلم فائدة هذا اللبن وسبب تجمعهِ في باطن جوز الهند فليترك ابن البطار وابن بطوطة وغيرهما من كتّابنا ولِيطالع ما لخصهُ لهُ عن العلامة غرانت الن الطبيبي الانكليزي وهو

اذا قطفت جوزة الهند خضراء قبل ان تنضج جيدًا وقطعت قشرتها الظاهرة بسكين حيث تظهر فيها العيون الثلاث (ويسهل قطعها حينئذٍ لانها تكون لينة وهي خضراء) ظهر انها مملوءة بهذا اللبن او الماء وتكون مادة الجوزة حينئذٍ لينة كالزبدة حتّى يمكن قضمها بلعقة وأكلها بها . ويحيط بمادة الجوزة قشرة خشبيّة صلبة ويحيط بالقشرة الياف كثيرة منضدة بعضها فوق بعض وبالالياف قشرة خضراء . ومادة الجوزة هي راسب من اللبن الذي في باطنها وذلك غير قاصر على جوز الهند بل اكثر الحبوب يكون مملوءًا بلبن او بمادة سائلة قبلما يبلغ جيدًا كما يرى في حبوب الحنطة واللوبياء والجوز ولكنّ جوز الهند يفرق عنها في ان هذا اللبن او الماء لا يزول منهُ حينما ينضج بل يبقى فيهِ وهنا محل البحث ومجال النظر فان جوز الهند لم يخالف غيرهُ من انواع النبات الاّ وله من ذلك منفعة خاصة بهِ واما ما يزعمهُ البعض من انهُ يجمع هذا الماء ويحفظهُ لينتعّم بهِ الانسان فمردود بان الجوز يفعل ذلك في الجزائر التي لم تطأها قدم انسان وكان يفعل ذلك قبل ان وجد الانسان على هذه البسيطة بالوف والوف الوف من السنين

وغاية النارجيل من جوزهِ مثل غاية سائر الاشجار من اثمارها اي حفظ نوعها وتكثير نسلها وهي تستخدم من الوسائط لذلك ما يكلّ القلم عن وصفهِ وقد تدرّجت الى استخدامها مدة الوف من السنين

واذا امعن الانسان نظرهُ في جوزة الهند رأى في رأسها الدقيق ثلاث اعين اثنتان منها صلبتان وواحدة لينة وفيها هنة صغيرة كحبة العدس او اكبر وهي الجرثومة التي تنفرخ وتصير شجرة . والجوزة كلها خُلقت لتغذية هذه الجرثومة . ولكن ما يغذي النبات يغذي الحيوان ايضًا ولذلك يخشى على الجوزة ان يصل اليها حيوان بفمهِ فيذهب تعب شجرة النارجيل عبثًا ولذلك احيطت هذهِ الجوزة بقشرة صلبة جدًّا تقيها شرّ الحيوان وكان ذلك قبل ان وجد الانسان الذي لا يمنعهُ مانع عن اغتنام ما لهُ فيهِ مطمع . ثم ان شجر النارجيل يطول كثيرًا فيبلغ ارتفاعهُ مئة قدم او حواليها فاذا سقطت الجوزة من هذا الارتفاع الشاهق انكسرت حتمًا فلا يبقى لقشرها الصلب فائدة ولذلك غلّفت بغلاف من الليف اللدن حتّى اذا سقطت ازال الليف قوة السقطة بلدونتهِ فتصل الجوزة الى الارض سالمة

وتأخذ الجرثومة في النمو . ولكن الحبوب والاثمار المختلفة لا تنمو الاَّ اذا كان في الارض ماء تستعين به على اذابة الغذاء وامتصاصهِ وقد تقدَّم ان الجوزة محاطة بقشرة صلبة تمنع دخول الماء اليها ولذلك وُجد فيها هذا الماء ليقوم مقام الماء الذي يتعذر عليها امتصاصهُ من الارض . هذه فائدة الماء الذي في جوز الهند

فاذا حان وقت نمو الجرثومة كبرت رويدًا رويدًا وامتصَّت الماء والغذاء المحيط بهِ حتَّى تملأ الجوزة كلها وحينئذٍ ينبت طرفها الآخر من العين المشار اليها ويخرج خارج الجوزة غير خائف من الحر والقيظ لان لهُ ذخرًا عظيمًا داخل الجوزة حتَّى اذا ظهرت اوراقهُ وصار قادرًا على الاستعانة بنور الشمس وحرارتها وعلى النمو شقت جذورهُ الجوزة وغارت في الارض تطلب الغذاء

رأينا مما تقدَّم فائدة العين اللينة التي سماها ابن بطوطة فمًا فما فائدة العينين الآخريين الصلبتين . والجواب انهما ككثير من الاعضاء الاثرية في الانسان والحيوان وككثير من العادات التي ورثناها عن اسلافنا ولا فائدة لها سوى الدلالة عليهم فان النارجيل متولد من نباتات ثلاثيَّة الازهار والاثمار كالزنبق والنخيل ونحوها . ففي زهرة الزنبق ثلاث اوراق (بتلات) وثلاث اسدية طويلة خارجة وثلاث اسدية قصيرة باطنة وثلاث بزور في ثلاث غرف او ثلاثة صفوف من البزور . وكثير من صنوف النخل لم تزل اثمارهُ ثلاثيَّة ايضًا . والغرض من تعدُّد الاثمار التأمين على حفظ النوع حتَّى اذا عرض لها عارض سلم بعضها . ولكنَّ الاثمار تتنازع ويتغلب بعضها على بعض وبيئة ولذلك ترى قليلاً من اللوز بقلبين واكثرهُ بقلب واحد مع ان اللوز كان كلهُ اصلاً بقلبين . والظاهر ان كل جوزة من جوز النارجيل كانت قبلاً مؤلفة من ثلاث جوزات فانضمت معًا وصارت جوزة واحدة وزالت جرثومتان من جرثوماتها الثلاث وبقي اثرها في هاتين العينين . ولبقاء هذين الاثرين فائدة لا تنكر لانهُ اذا وقعت الجوزة في يد قرد فالراجح انهُ لا يعثر بالعين اللينة مرَّة حتَّى يعثر بالصلبة مرتين فاذا عثر بالصلبة سقط في يدهِ وطرح الجوزة ولم يضرَّ بها واذا كان فيها عين واحدة لم تسلم منهُ جوزة

ولكن اذا سلم جوز الهند من القرود فقلَّ لا يسلم من سواها فان لهُ كثيرًا من الاعداء ولاسيما نوعًا من السرطان غريب الشكل يعيش على جوز الهند والظاهر ان الجوز بلغ حدَّهُ من الارتقاء قبل ان اصابهُ هذا العدو الالد فلم يعد في وسعهِ التحفُّظ منهُ . ولهذا السرطان مخلبان كبيران متينان وذنب دقيق كالملقط فاذا اصاب جوزة وقعت على الارض اقبل

بتخليهِ ونزع ليفها عنها حتّى اذا بلغ العين اللينة خرقها واولاها ظهرهُ وغمد ذنبهُ فيها وجعل يستخرج مادتها ويأكلها ولم يزل دائبًا حتّى تفرغ كلها ثم يجمع الليف الذي نزعهُ عنها و يبطن بهِ جحرهُ وفي نيتهِ ان يقيم فيهِ آمنًا طوارق الزمان و بوائق الايام ولا يدري ان الانسان له بالمرصاد فيصطادهُ من جحرهِ و يقتدي بلحمهِ ويذيب دهنهُ و يأخذ الالياف التي جمعها غنيمة باردة . والجوز يصنع هذا الدهن لتغذية فرخهِ فيختلسهُ السرطان منهُ غيلةً ويختلسهُ الوطنيون من السرطان فيأتيهم تجار الاوربيين و يأخذونهُ منهم و يعوضونهم عنهُ قطعًا من النسيج الواهي او شرابًا من المسكرات العامة و يمضون بهِ الى بلادهم وهناك مجمع المنافع وملتقى التجار

واذا سلمت الجوزة من القرد والسرطان والانسان ووقعت على شاطىء البحر نمت على الاسلوب الذي شرحناهُ وصارت شجرة كبيرة ولكنها اذا وقعت في البحر نفسهِ وذلك غير نادر طفت على وجهِ الماء لخفة لبها ولبثت هناك تتقاذفها الامواج الى ان تقع على جزيرة قفراء او على حلقة من حلقات المرجان فتنمو عليها وتكسوها خضرة ولولا صلابة قشرتها وخفة لبها ما انتشر النارجيل في اقطار المسكونة شرقًا وغربًا كما هو منتشر الآن

ثم ان شجر النارجيل لا يطول بسرعة بل يكون في اول امرهِ صغيرًا منتشرًا كالنخل ولا يظهر جذعهُ الاَّ في السنة الثالثة و يطول بعد ذلك بسرعة . و يزهر في السنة الثامنة او العاشرة وازهارهُ صغيرة فيها اخضرار تلقحها الرياح اللواقح بحمل اللقاح من زهرة الى اخرى و يكبر الجوز حتّى تبلغ الجوزة بقشرها البطيخة الكبيرة

والشجرة تحمل كل سنة عشرة قنوان الى اثني عشر قنوًا وفي القنو منها من خمس جوزات الى خمس عشرة جوزة فتوسط ما تحملهُ الشجرة الكبيرة مئة وعشرون جوزة . والذين نبتت هذه الشجرة في بلادهم تفنيهم من الكدح والكسب فيأكلون ثمرها و يشربون لبنها و يستظلون في النهار بظلها و ينامون في الليل في بيوت مصنوعة من سعفها وخشبها و يصنعون آنيتهم من جوزها و يبدلون بعضهُ بالمنسوجات الاوربية و يكتسون بها ولولاها لكانوا ادأب على العمل واحرص على الكسب